الأمم في أيام المحن

بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

الأستاذ بكلية الآداب

تحدثت في العدد الماضي في الصبر على الشدائد، وبينت كيف تستقبل النفوس الكبار الخطوب الجسام فتثبت لها وتستكبر عليها، وتصدمها بعدتها من الإيمان والشجاعة والعزة والإباء حتى تنكشف غُمتها وتنجلي غمرتها.

واليوم أقول: ليس الصبر الذي ندعو اليه ذلا للحوادث، ورضا بصروف الأيام، واستكانة لغير الزمان، وخنوعا لتصريف الخطوب. كلا كلا. إن هذا كله ذل وعبودية وعجز تسمى بغير أسمائها فيقال صبر ورضا وقناعة.

إنما الصبر الذي ندعو اليه أن يلقى المرء الخطب هائلا فلا يرتاع، والحدث مخيفا فلا يخاف، والبلايا مظلمة فلا يضل ولا يحار ولا يتبلد، بل يقدح في جوانبها بفكره وعزمه حتى يشق في ظلامها طريقه، ويتبين في غمتها مقصده. وينصلت منها كما ينصلت السيف من غمده.

إنما الصبر الذي ندعو اليه أن تدهم الإنسان الأمور المشكلة، والصعاب المعضلة فلا تملك عليه لبه ولا تسلبه حزمه، بل يوجه اليها من تجربته وعقله وحزمه وعزمه ما ييسرها ويفرجها.

إذا نزلت الخطوب بأمة عظيمة لم تفزع ولم تتحير، بل حشدت كل ما في أبنائها وتاريخها من قوة لدرء المصائب والخروج منها. وبادر أولو الرأي فيها وذوو العقول منها فكانوا لها رواسي تعصمها أن تتزلزل، ومصابيح تمنعها أن تضل، وآمالا تحميها أن تيأس، وعزائم تأبى لها أن تضعف، وما يزالون بها سياسة وهداية وتثبيتا وجهادا حتى يخرجوا بها من المحنة قوية بإيمانها وأخلاقها، قد استفادت من المحنة أكثر مما أخذت المحنة منها. ثم تبقى هذه التجارب وهذه العبر عدة للأمة تفزع اليها كلما حزبها أمر أو دهمها خطب.

وإنما يُخلق تاريخ الأمم في الحوادث الكبار، ويستمر بما يمده به أبناؤها في كل خطب من الأقوال والأفعال. وإن الكلمة الحرة لتبقى على مر الزمان روحا ينفخ في الأمة العظمة

والجهاد والصبر والدأب . وإن الموقف المجيد ليبقى أبد الدهر مثلا يمد الأمة حين البأس بما تغالب به اليأس من أمل وعمل . وكم فى التاريخ من عبر ، وكم فى التاريخ من مثلات .

حدثنا تاريخ الإسلام أن المسلمين فى وقائع كثيرة ثبتوا على النوائب وصبروا وغالبوا الدهر فغلبوا .

وحدثنا تاريخ الإسلام فى عصر النبوة أن المسلمين هزموا فى غزوة أحد ولكنها هزيمة لم تتعد صفوف القتال : رأى المشركون — وهم أكثر عددا — غرة من المسلمين فانتهزوها ، ولكن إيمان المسلمين لم يتزعزع ونفوسهم لم تخنع ، ولكن عزائمهم لم تضعف واستماتتهم فى سبيل الله لم تهن ، ولكن الهلع والرعب والفرقة والخلاف لم تجد إلى قلوب المسلمين سبيلا . لهذا لم يستطع العدو الذى غلب فى المعركة أن يتبع الجيش المغلوب ولم يستطع أن يدهم المدينة ، بل رضى من هذا الظفر بالإياب ، وجمع المسلمون شملهم وخرجوا يراقبون عدوهم ويخيفونه أن يطمع فى ديارهم وكانت عاقبة الصبر والثبات كما قال القرآن الكريم : "يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم "

وحدثنا تاريخ الإسلام كذلك أن المشركين من قريش وقبائل أخرى ائتمروا بينهم على أن يغزوا المسلمين فى ديارهم ، ويطفئوا الإسلام فى مدينته ، فساروا فى جمع حاشد قد ضمنوا لأنفسهم الغلبة بالكثرة . واشتد الأمر على المسلمين ، وهم يومئذ الفئة القليلة التى يكلفها الله أن تثبت للناس جميعا حتى تبلغ دعوة الله وتنشر دينه فى أرجاء الأرض . اشتد الأمر فكان كما وصفه القرآن الكريم :

" إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا " .

لاذ المسلمون بإيمانهم ، واعتصموا بقرآنهم ، واقتدوا بنبيهم ، فهونوا الخطب على أنفسهم ووطنوا قلوبهم على الانتصار أو الموت ، وأعملوا عقولهم وأخلاقهم وأيديهم ، فحفروا خندقا فى موضع الخوف من جهات المدينة ، وأرصدوا وراء هذا الخندق خنادق من الإيمان والصبر والثبات والأخوة والثقة بالله والتوكل عليه . وما زالوا حتى ملأوا قلوب أعدائهم رعبا ويأسا بشجاعتهم وصبرهم ، وحتى ملأوا صفوفهم ريبة واختلافا بكيدهم وتدبيرهم ، فانجلت جموع الباطل يغزوها

عدو من أنفسها، ويفل حدها شك فى ضمائرها وخور فى عزائمها، وانجلت الغمرة عن المسلمين أقوى بأسا وأشد فى قلوب أعدائهم رهبة . ذلكم بأنهم قابلوا النازلة كما قال القرآن فيهم :

" ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " .

وكذلك يحدثنا تاريخ الاسلام إبان نشأته أن المسلمين بعد أن فتحوا مكة ساروا إلى قبائل هوازن وكانت قد اجتمعت لحربهم. وبينما المسلمون يسيرون آخر الليل بغتهم عدوهم فى وادى حنين فدهشوا وتفرقوا وأيقن ضعفاء النفوس بالهزيمة وصبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت فانحاز إليه أنجاد المسلمين وثبتوا وصبروا فانقلبت الهزيمة نصرا وغلب الخلق القوى فى المأزق الضيق بعد أن غلبت الكثرة والسلاح فى المعترك الواسع .

" لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين". فهذه السكينة، هذا الصبر، هذا الثبات كفيل النصر والظفر. سنة الله فى خلقه ؛ ماتصادمت جماعتان إلا كانت العاقبة لأصبرهما على الشدائد. وأوقرهما وقت المحنة ، وأكثرهما نصيبا من السكينة والثقة بالله .

يصبر الإنسان للشدائد ليغلبها ، ويحتملها ريثما يدفعها . وإنما تدفع الخطوب بالتعاون عليها ، والتضافر فى مغالبتها . والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه . لا يستغنى الانسان عن أخيه فى السلم والحرب، والرخاء والشدة، ولكن الشدائد تزيد شعور الفرد بحاجته إلى أخيه . فإن غفل الانسان عما بينه وبين إخوانه من أواصر ، واذا توهم أنه يستطيع أن يعيش بنفسه لنفسه فإن الشدائد كفيلة بأن تكشف عنه هذا الحجاب وترفع هذا الوهم فيرى أنه لا يملك نفعا ولا ضرا إلا بأمته ، ولا يستطيع صغيرة ولا كبيرة إلا ببنى وطنه .

وكلما عم الخطر اشتد الشعور بالروابط القومية والوطنية ، وعلى قدر عظم الخطر تستحكم الألفة بين الأمة ، ويتمكن التعاون بينها ، ويقوى اتحادها علما بأن فى الألفة والتعاون والاتحاد نجاة الفرد والجماعة ، وأن الخطب الشديد ينبغى أن يقابل بما يكافئه من التعاون المحكم. وهنالك تتصل النفوس ، وتتوحد القلوب وتتناصر الآراء والأعمال، فاذا الأمة كلها جسد واحد يفكر بعقل واحد ويعمل فى وئام لمقصد واحد. هنالك ينسى الفرد نفسه ويذكر أمته ، ويصغر نفسه ليكبر جماعته ، ويخاطر بنفسه ليقى دولته .

فاذا دهمت الأمة حرب — مثلا — تقدم جندها يقونها بأنفسهم ، ووقف سائر الأمة وراء الجند كل يبذل من عقله وخلقه وماله وصناعته وجهده لسلامة أمته . ويعرف كل رجل وكل امرأة أن عليه أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل . فيدأب الساسة والعلماء والكتاب والشعراء والتجار والزراع والصناع وكل من استطاع أن يقدم لأمته عملا كبيرا أو صغيرا — يدأب هؤلاء جميعا على تأدية الواجب غير مدخرين وسعا ، ولا آلين جهدا .

والأمة المصرية المجيدة تقدر موقفها من الشدائد المحيطة ، فتعد للأمر عدته غير هيابة ولا متزلزلة ولا يائسة ولا خائفة . تستمد شرفها وعزتها ودينها وتاريخها لتؤدى فى هذه المحن واجبها ، وتضطلع بقسطها من العمل لخيرها وخير البشر كافة . فعلينا جميعا أن نتضافر ونتناصر ونتآخى لحمل العبء وتأدية الواجب . على كل منا أن يؤدى واجبه وأن ييسر لأخيه تأدية واجبه بمعاونته وتيسير السبيل له . على كل مصرى أن يستملى ضميره ووجدانه ليؤدى واجبه راضيا مغتبطا . على كل مصرى أن ييسر تصريف الأمور بطاعة القوانين والمبادرة الى إنفاذها ومعاونة القائمين عليها ، بالتزام النظام والمحافظة عليه . رضا لا كرها ورغبة لا رهبة .

إننا أمة لها من حاضرها وتاريخها ولها من عزتها وكرامتها ، ولها من إسلامها وعروبتها ولها من مكانتها بين الأمم العربية والاسلامية وفى الشرق والغرب ما يبصرها بواجبها ، ويشد أزرها ، ويملؤها عزة وإباء ويأبى لها أن تذل لحادث ، أو تخضع لنا زلة . فسيروا الى الغاية قدما مخلصين لواجبكم ، متوكلين على ربكم . "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والله معكم" .

عبد الوهاب عزام